

المَوْصُوفُ بِالْأَطُولِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ –دراسة لغوية استقرائية تحليلية–

*The Attribute of "Lengthiness" in the Holy Qur'an: A Linguistic, Inductive, and Analytical Study*زكرياء توناني¹¹ جامعة الجوف، zakaria.tounani@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/07/25

تاريخ القبول: 2025/01/27

تاريخ الاستلام: 2025/01/18

ملخص: يَسْتَعْرِضُ هَذَا الْبَحْثُ أَبْعَادَ الطُّولِ فِي بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مُتَنَاوِلًا أَطُولَ السُّورِ، وَالْكَلِمَاتِ، وَالْقَصَصِ، وَالْأَسَالِيبِ، وَكَيْفِيَّةَ تَوْظِيفِهَا لِتَحْقِيقِ مَقَاصِدِ بَلَاغِيَّةٍ سَامِيَّةٍ. يُوضِّحُ الْبَحْثُ أَنَّ الطُّولَ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ، كَطُولِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَوْ كَلِمَةِ {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ}، يُعَبِّرُ عَنْ أَنْسَجَامٍ بَلَاغِيٍّ يَبْرِزُ الْمَعْنَى وَيُثْرِيهِ، دُونَ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَى التَّشْتُّبِ أَوْ الثَّقَلِ. كَمَا أَظْهَرَ الْبَحْثُ تَمَيُّزَ قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاعْتِبَارِهِ نَمُودَجًا لِلْسَّرْدِ الْمُتَكَامِلِ رُغْمَ طُولِهَا، وَأُسْلُوبِ الْقِسْمِ فِي سُورَةِ الشَّمْسِ، الَّذِي يُوظَّفُ التَّكْرَارَ وَالتَّنَاغُمَ لِيَزَادَةَ الْأَثَرِ الْبَلَاغِيَّ. وَخُلِّصَ الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ الطُّولَ فِي الْقُرْآنِ لَيْسَ عَائِقًا، بَلْ أَدَاةٌ بَلَاغِيَّةٌ مُتَقَنَّةٌ تُحَقِّقُ التَّوَازُنَ بَيْنَ الْإِيجَازِ وَالْإِطْنَابِ، دَاعِيًا إِلَى دِرَاسَاتٍ أَعْمَقَ حَوْلَ تَأْثِيرِ الطُّولِ عَلَى الْقَهْمِ وَالتَّدْبِيرِ. الْكَلِمَاتُ الْمِفْتَاحِيَّةُ: الْأَطُولِيَّةُ، الْقُرْآنُ، لُغَوِيَّةٌ، اسْتَقْرَائِيَّةٌ، تَحْلِيلِيَّةٌ.

Abstract:

This study examines the dimensions of textual length in the eloquence of the Qur'an, focusing on the longest chapters, words, narratives, and rhetorical styles, and how they are skillfully employed to achieve profound communicative purposes. The research highlights that the length of Qur'anic texts—such as the extended chapter Al-Baqarah or the intricate word “fa-asqaynakumuhu”—reflects a remarkable rhetorical harmony that enhances meaning and depth without causing distraction or undue complexity.

Furthermore, the study underscores the exceptional coherence in the narrative of Prophet Joseph (peace be upon him) as a model of

integrated storytelling despite its extended length, alongside the rhetorical finesse of oaths in Surat Al-Shams, where repetition and rhythmic structures amplify the Qur'an's persuasive and emotive power.

The research concludes that textual length in the Qur'an is not a hindrance but a sophisticated rhetorical tool that balances conciseness with elaboration, enriching both meaning and impact. It calls for further in-depth studies to explore the effects of textual length on comprehension, contemplation, and the broader dimensions of Qur'anic exegesis.

Key words:Lengthiness, Qur'an, Linguistic, Inductive,Analytical.

المؤلف المرسل: زكرياء توناني، الإيميل: zakaria.tounani@gmail.com

1. مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. أمّا بعد:
فإن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي أنزلها الله عز وجل على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم؛ ليكون هداية للبشرية ونورا يضيء دروبهم إلى يوم القيامة.
وقد تميّز الكتاب العزيز بإعجاز فريد يتجلى في كل أجزاءه؛ في أسلوبه، وبنائه، وموضوعاته، وتشريعاته، مما جعله موضع تأمل وتدبر على مر الأزمان، ومن بين جوانب هذا الإعجاز؛ يبرز مفهوم «الأطولية» في القرآن الكريم، الذي يتمثل في السور والآيات، بل وفي الكلمات والأساليب، وذلك كله يحمل في طياته دلالات بلاغية وتشريعية عظيمة.
ومن هنا جاء هذا البحث؛ ليستعرض ما وُصف بالأطولية في القرآن الكريم من خلال دراسة استقرائية تحليلية، متناولا أبعادها البلاغية والتشريعية والتربوية، تحت عنوان:
«المؤصوف بالأطولية في القرآن الكريم: دراسة استقرائية تحليلية».

أهمية الموضوع:

تَجَلَّى أَهَمِّيَّةُ هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي إِبْرَازِ أَحَدِ الْجَوَانِبِ الْفَرِيدَةِ لِلْإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ، الْمُمْتَمِلِ فِي الطُّولِ النَّسْبِيِّ لِبَعْضِ نُصُوصِهِ؛ إِذِ الْأَطُولِيَّةُ لَا تَتَعَلَّقُ فَقْطُ بِكَثْرَةِ الْحُرُوفِ وَعَدَدِ الْكَلِمَاتِ فَحَسْبُ، بَلْ تَتَعَدَّاهَا إِلَى الْبِنَاءِ الْمُحْكَمِ، وَالتَّرَاوُطِ الْبَلَاغِيِّ، وَالْعُمُقِ التَّشْرِيعِيِّ وَالْقَصَصِيِّ.

دِرَاسَةُ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ تَفْتَحُ أَفْهًا جَدِيدًا لِفَهْمِ أَعْمَقِ لِمَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَدْبُرُ آيَاتِهِ فِي سِيَاقَاتِهَا الْمُخْتَلِفَةِ، بِمَا يُعَزِّزُ وَعْيَ الْمُسْلِمِينَ بِجَمَالِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَعُمُقِ رِسَالَتِهِ.

أَسْبَابُ اخْتِيَارِ الْمَوْضُوعِ:

أَوَّلًا: الرَّغْبَةُ فِي اكْتِشَافِ بُعْدٍ مُبَيَّنٍّ مِنْ أُبْعَادِ الْإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ غَيْرِ الْمَطْرُوقَةِ فِي الْأَنْحَاثِ الْمُعَاصِرَةِ.

ثَانِيًا: أَهَمِّيَّةُ إِبْرَازِ الطُّولِ النَّسْبِيِّ فِي السُّورِ وَالْآيَاتِ بِاعْتِبَارِهِ وَسِيلَةً بَلَاغِيَّةً وَتَشْرِيعِيَّةً تَعَكِّسُ الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ.

ثَالِثًا: الْحَاجَةُ إِلَى إِبْرَازِ الرِّسَائِلِ الْعَمِيقَةِ الَّتِي تَنْطَوِي عَلَيْهَا النُّصُوصُ الطَّوِيلَةُ، سَوَاءً أَكَانَ ذَلِكَ فِي التَّشْرِيعِ أَوْ الْقَصَصِ أَوْ الْمَوَاعِظِ.

رَابِعًا: التَّوَجُّهُ لِتَقْدِيمِ دِرَاسَةٍ جَدِيدَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ الْجَوَانِبِ الْبَلَاغِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ وَالتَّفْسِيرِيَّةِ حَوْلَ «الْأَطُولِيَّةِ» فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

إِشْكَالِيَّةُ الْمَوْضُوعِ:

تَتَمَثَّلُ الْإِشْكَالِيَّةُ الرَّئِيسَةُ لِهَذَا الْبَحْثِ فِي السُّؤَالِ الْآتِي:

كَيْفَ يَعْكُسُ الطُّولُ النَّسْبِيُّ لِبَعْضِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ أُبْعَادًا بَلَاغِيَّةً وَتَشْرِيعِيَّةً وَقَصَصِيَّةً تُسَنِّمُ فِي تَحْقِيقِ الْإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ؟

وَيَتَفَرَّغُ مِنْ هَذِهِ الْإِشْكَالِيَّةِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ السَّأُولَاتِ:

أَحَدُهَا: مَا دِلَالَاتُ الْأَطُولِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى مُسْتَوَى السُّورِ وَالْآيَاتِ وَالْكَلِمَاتِ وَالْمَوَاقِفِ؟

ثَانِيهَا: كَيْفَ يُسَنِّمُ الطُّولُ فِي تَوْصِيلِ الرِّسَالَةِ التَّشْرِيعِيَّةِ وَالْقَصَصِيَّةِ؟

ثَالِثُهَا: مَا التَّأثيرُ الَّذِي يُخْذِئُهُ الطُّولُ عَلَى فَهْمِ النُّصُوصِ وَتَدْبِيرِهَا؟

الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ:

لَمْ أَقِفْ فِي حُدُودِ بَحْثِي وَاطِّلاَعِي عَلَى مَنْ أَفَرَدَ الْمَوْصُوفَ بِالْأَطُولِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِجَمْعٍ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ وَتَفَرُّعَاتِهِ.

خُطَّةُ الْبَحْثِ:

اِفْتَضَتْ طَبِيعَةُ الْبَحْثِ أَنْ يَنْتَظِمَ فِي مُقَدِّمَةٍ، وَأَرْبَعَةِ مَبَاحِثَ، وَخَاتِمَةٍ، عَلَى النَّحْوِ الْآتِي:
مُقَدِّمَةٌ.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: أَطُولُ السُّورِ وَالْآيَاتِ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: أَطُولُ الْكَلِمَاتِ.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: أَطُولُ الْقِصَصِ.

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: أَطُولُ الْأَسَالِيبِ.

خَاتِمَةٌ، وَفِيهَا أَهَمُّ النَّتَائِجِ وَالتَّوَصِيَّاتِ.

2. الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: أَطُولُ السُّورِ وَالْآيَاتِ

1.2 الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: أَطُولُ السُّورِ.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ هِيَ أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ فِي الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالْإِجْمَاعِ.

أَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّ آيَةَ: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} [البقرة: 281] لَيْسَتْ مَدَنِيَّةً، وَعَلَّلُوا ذَلِكَ بِأَنَّهَا نَزَلَتْ يَوْمَ النَّحْرِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ؛ فَهُوَ رَأْيٌ ضَعِيفٌ لِلْعَايَةِ (الشَّهَابُ الْخَفَاجِي، (152/1). وَالطَّنْطَاوِي، (27/1)، وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّحْقِيقَ أَنَّ الْمَدِينِيَّ هُوَ كُلُّ مَا نَزَلَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ، سَوَاءً نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ غَيْرِهَا، فَالْقَاعِدَةُ فِي الْمَكِّيِّ وَالْمَدِينِيِّ قَاعِدَةٌ زَمَانِيَّةٌ لَا مَكَانِيَّةٌ عَلَى الصَّحِيحِ.

وَعَدَّدَ آيَاتِ هَذِهِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ اخْتُلِفَ فِيهِ الْعَادُّونَ؛ فَهِيَ مِائَتَانِ وَخَمْسٌ وَثَمَانُونَ آيَةً فِي الْعَدِّ الْمَدِينِيِّ الْأَوَّلِ وَالْأَخِيرِ وَالْمَكِّيِّ وَالشَّامِيِّ، وَمِائَتَانِ وَسِتٌّ وَثَمَانُونَ آيَةً وَفَقَّ الْعَدِّ الْكُوْفِيُّ، وَمِائَتَانِ وَسَبْعٌ وَثَمَانُونَ آيَةً فِي الْعَدِّ الْبَصْرِيِّ (أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي (ص140). وَابْنُ شَازَانَ (ص99).

وَهَذِهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ هِيَ الثَّانِيَّةُ فِي التَّرْتِيبِ الْمَصْحَفِيِّ بَعْدَ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَهِيَ السَّابِعَةُ وَالثَّمَانُونَ مِنْ حَيْثُ تَرْتِيبُ التُّزْوِيلِ (عَبْدُ الرَّحْمَنِ حَبَنَكَةُ الْمِيدَانِي (341/15).

وَقَدْ أُطْلِقَ عَلَيْهَا أَسْمَاءٌ مُتَعَدِّدَةٌ؛ بَعْضُهَا مُسْتَبَدٌّ إِلَى النَّصُوصِ، وَبَعْضُهَا اجْتِهَادِيٌّ، وَذَكَرَ السُّيُوطِيُّ لَهَا ثَلَاثَةَ أَسْمَاءٍ مَأْثُورَةٍ (السُّيُوطِيُّ (191/1)، وَالَّذِي صَحَّ مِنْهَا: سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَسَنَامُ الْقُرْآنِ، وَتُسَمَّى مَعَ آلِ عِمْرَانَ: الزَّهْرَاوَيْنِ.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ عَطِيَّةٍ أَنَّ سُورَةَ الْبَقَرَةِ صَمَتٌ خَمْسَمِائَةٍ حُكْمٍ، وَخَمْسَةَ عَشَرَ مَثَلًا بَلِيغًا (ابن عطية 81/1).

وسورة البقرة هي أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق، وقد أنزلت في مددٍ مُتَفَرِّقَةٍ؛ لِتُعَالِجَ فُضَايَا الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ النَّاشِئَةِ.

وهي تحتوي على منظومة متكاملة من العقائد، والعبادات، والأحكام الشرعية، والقصاص، والدعوات إلى الإصلاح، مما يجعلها أصلاً يُوجّه المسلم في حياته الفردية والجماعية.

ثم إن طول السورة لا يرجع فقط إلى عدد آياتها، بل إلى ما تحمله من تنوع في الموضوعات التي تضمنتها، فقد تحدّثت عن الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق، كما بيّنت أحكاماً شرعيةً دقيقةً متعلّقة بالمعاملات والعبادات، وتطرّقت إلى العلاقات الاجتماعية وقضايا الأمة الكبرى، مثل العلاقة مع أهل الكتاب واليهود والموثيق.

إن طول سورة البقرة لا يعدُّ مجرد إطالة لفظية أو كثرة آيات دون غاية، بل هو طول مُفَعَّمٌ بالبلاغة والإعجاز، حيث يجمع بين كثافة المعاني وزوعة الأسلوب. فإن من خصائص الكلام البليغ أن طوله غالباً ما يُعْرِضُهُ لِلْحَلَلِ أو التكرار الممِلِّ أو التفكُّك في ترابط الأفكار، ولكن سورة البقرة جاءت على طولها مُحْكَمَةً الْبِنَاءِ، متماسكة الأفكار، لا تجد فيها حرفاً إلا في موضعه، ولا كلمة إلا تُؤدّي غرضاً بليغاً.

إن سورة البقرة - كما تقدّم - هي أطول سور القرآن الكريم، ومع ذلك فإنك إن تأملت تراكيبتها ومعانيها تجدّها مُتَسَقَّةً بديعة كأنّها وحده واحدة، لا انفصام فيها ولا اضطراب. تراوح السورة بين أنواع مختلفة من الخطاب: من التوجيه التشريعي، إلى القصص التاريخي، إلى الدعوة والإرشاد، إلى التحذير والوعيد. ومع هذا التنوع، تظل السورة في قمة الفصاحة والبلاغة، فلا تجد تناقضاً بين أجزائها، ولا غموضاً يُخلُّ بفهمها.

وقد أشار العلماء إلى هذا الإعجاز الفريد، مؤكّدين أن طول الكلام البشري عادةً ما يفوّد إلى السقوط في تكرار المعاني أو ضعف الألفاظ أو الابتعاد عن المقصد، أمّا سورة البقرة، فقد بقيت على امتدادها الطويل مُحْكَمَةً النَّسْجِ، بليغة التعبير، بحيث تسحر العقول وتروّي القلوب، وتظل شاهدة على إعجاز القرآن الكريم (عبد الله دراز، ص: 191-196).

ومن أبرز مظاهر بلاغة سورة البقرة على طولها:

أولاً: التنوع الموضوعي مع وحدة العرض: حيث تتناول قضايا التشريع، والمصص، والعقيدة، والأخلاق، دون أن يطغى موضوع على آخر، بل تتكامل المعاني لتصب في تحقيق الهداية. ثانياً: التكرار الهادف: فالتكرار الموجود فيها ليس مملًا، بل يأتي لتعميق المعنى وتأكيد الحقائق. ثالثاً: الانسجام بين الألفاظ والمعاني: لا نجد في السورة كلمة زائدة أو جملة يمكن أن نحذف دون أن يختل المعنى، مما يعكس قيمة البلاغة.

رابعاً: إن طول سورة البقرة لا يُنظر إليه على أنه مجرد امتداد لفظي، بل هو شاهد على عظمة القرآن وإعجازه، حيث بقيت على طولها في أعلى مراتب البلاغة والفصاحة، متجاوزة بذلك حدود الطاقة البشرية، وراسمة صورة من الكمال الذي لا يضاهاى.

2.2 المطلب الثاني: أطول السور المكية.

القرآن الكريم يشتمل على سور مكية وسور مدنية، وتعد السور المكية السور التي نزلت قبل الهجرة إلى المدينة، والتي اتسمت بتضمنها مواقف خطيئة تهدف إلى دعوة المشركين إلى الإيمان بالله وحده، وتحذيرهم من عواقب الشرك والظلم، وإلى الدعوة إلى ترسيخ العقائد عمومًا. من هذه السور المكية: تبرر سورة الأعراف، باعتبارها مثالاً للسور التي تتصف بطولها وتنوع موضوعاتها، بل هي أطول السور المكية (طنطاوي، 237/5)، ونجد أن طول هذه السورة له أثر بالغ في تحديد أسلوب الدعوة وطريقة مخاطبة المشركين.

وقد بلغت عدد آيات سورة الأعراف ستًا ومائتين (هذا في العد المدني والكوفي، وأما في العد البصري والشامي).

، ويمكن تلخيص مواضع السورة فيما يأتي:

أولاً: الدعوة إلى اتباع وحي الله تعالى.

فالسورة تدعو الإنسان للاختكام إلى وحي الله تعالى وتوحيد العبادة له، وتؤكد على أهمية الطاعة الكاملة لله في شئ أمور الحياة.

ثانياً: عرض تاريخ البشرية.

فتقديم القصص القرآني للأمم سابقة كأمثلة حيّة على نتائج الطاعة والضلال، لإعطاء المؤمنين

دروس من الماضي.

ثالثاً: التوجيه التشريعي والبيان العقدي.

تُبرزُ السُّورَةُ أُصُولُ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، مِثْلُ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ وَالْإِلتِزَامِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ، وَتُحَذِّرُ مِنْ حَظَرِ اتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ.

رَابِعًا: التَّحْذِيرُ مِنْ عَوَاقِبِ الْإِعْرَاضِ.

تُشِيرُ السُّورَةُ إِلَى مَصِيرِ الَّذِينَ يَرْتَضُونَ اتِّبَاعَ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَخْتَارُونَ الْغَيَّ، وَتُبَيِّنُ أَنَّ سُنَنَ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ ثَابِتَةٌ لَا تَتَغَيَّرُ.

خَامِسًا: إِبْرَارُ رَحْمَةِ اللَّهِ وَهُدَايَتِهِ.

تُظْهِرُ السُّورَةُ رَحْمَةَ اللَّهِ الْوَاسِعَةَ وَهُدَايَتَهُ لِعِبَادِهِ، مَعَ تَأْكِيدٍ عَلَى أَنَّ الْهُدَايَةَ هِيَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ لِلنَّجَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

كَمَا أَنَّ السُّورَةَ تَذَكِّرُ أَيْضًا جَزَاءَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ وَالْعَصَاةِ بِالنَّارِ، وَهِيَ دَعْوَةٌ لِلتَّأْمُلِ فِي عَوَاقِبِ الْأَعْمَالِ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ.

وَمِنْ أَبْرَزِ مَلَامِحِ السُّورَةِ: عَرْضُ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ؛ حَيْثُ يَبْدَأُ الْحَدِيثُ عَنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا حَصَلَ لَهُ مَعَ إِبْلِيسَ، ثُمَّ يَلِيهِ ذِكْرُ الْأَنْبِيَاءِ الْآخَرِينَ؛ مِثْلُ نُوحٍ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَغَيْرِهِمْ، وَذَلِكَ فِي سِيَاقِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَرَفْضِ الطُّغْيَانِ وَالشِّرْكِ، فَفِي حَدِيثِ السُّورَةِ عَنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنُ؛ نَحْدُ تَفْصِيلًا دَقِيقًا لِحَالِ الظُّلْمِ الَّذِي ارْتَكَبُوهُ، وَكَيْفَ أَنَّ دَعْوَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِمْ إِلَّا بَعْدَ مُعْجَزَاتٍ إِلَهِيَّةٍ، وَهَذَا يُشْعِرُ بِأَنَّ التَّغْيِيرَ الْبَلَاغِيَّ عَنِ الْأَحْدَاثِ الْمُتَمَدِّدَةِ يُحِيطُ بِالْقَارِي لِيَتَعَمَّقَ فِي فَهْمِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

وَإِذَا كَانَتْ سُورَةُ الْأَعْرَافِ أَطْوَلَ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ، فَإِنَّ طُولَهَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا مُصَدِّقًا لِحِكْمَةِ النِّظَمِ الْقُرْآنِيِّ، حَيْثُ جَاءَتْ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الْبَلَاغَةِ وَالْإِحْكَامِ، تَتَنَاسَبُ مَعَ مَقْصُودِهَا فِي التَّوْحِيدِ وَالْإِنْدَارِ وَبَيَانِ سُنَنِ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ، مِمَّا يُثَبِّتُ أَنَّ إِطَالََةَ الْكَلَامِ فِي الْقُرْآنِ لَا تَخْرُجُ عَنْ سَمْتِ الْإِعْجَازِ وَكَمَالِ الْبَيَانِ.

2.3 الْمُطْلَبُ الثَّلَاثُ: أَطْوَلُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

آيَةُ الدِّينِ هِيَ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّمَانُونَ بَعْدَ الْمَائَتَيْنِ (282)، وَالْمُفْتَتَحَةُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَكُتِبُوهُ}، وَهِيَ أَطْوَلُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ (أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي، ص: 155)، وَهِيَ مِنْ أَبْرَزِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي بَجَمْعِ بَيْنِ الْإِعْجَازِ التَّشْرِيعِيِّ وَالِدَقَّةِ الْبَيَانِيَّةِ، فَقَدْ وَضَعَتْ قَانُونًا شَامِلًا لِلتَّعَامُلَاتِ الْمَالِيَّةِ بَيْنَ النَّاسِ، مِمَّا يُعَكِّسُ عَظَمَةَ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي تَنْظِيمِ الْعَلَاَقَاتِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ وَحِمَايَةِ الْحُقُوقِ، فَفِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ

إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاتَّكُبُوهُ﴾؛ أَمَرَ سُبْحَانَهُ بِتَوْثِيقِ الدَّيْنِ؛ تَأْكِيدًا عَلَى أَهْمِيَّةِ الْمَحَافَظَةِ عَلَى الْأَمَانَاتِ وَحِمَايَةِ الْحُقُوقِ مِنَ النِّزَاعِ وَالضَّرَبِ.

وَالآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَبْرُزُ مُنَوِّجًا مُتَكَامِلًا لِتَوْثِيقِ التَّعَامُلَاتِ الْمَالِيَّةِ، وَقَدْ أَحَاطَتْ بِجَوَابِ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْهَا:

أَوَّلًا: التَّوْثِيقُ الْكِتَابِيُّ، الْمَأْمُورُ بِهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {فَاتَّكُبُوهُ}. ثَانِيًا: الْوَسَائِلُ الْمَعِينَةُ عَلَى التَّوْثِيقِ بَعْدَ الْكِتَابَةِ، وَذَلِكَ بِإِشْهَادِ رَجُلَيْنِ عَدْلَيْنِ، فَإِنْ لَمْ يُوْجَدْ فَرَجُلٍ وَافِرَتَيْنِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ}.

ثَالِثًا: الشُّمُولِيَّةُ وَعَدَمُ التَّهَاطُؤٍ فِي الْحُقُوقِ: فَإِنَّ الْآيَةَ تُوضِّحُ أَنَّ التَّوْثِيقَ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْمَعَامَلَاتِ، سَوَاءً أَكَانَتْ صَغِيرَةً أَمْ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ}، وَفِي طَبَاقِ الْإِيجَابِ بَيْنَ (صَغِيرًا) أَوْ (كَبِيرًا) إِيْمَاءٌ إِلَى شُمُولِيَّةِ التَّشْرِيعِ وَاهْتِمَامِهِ بِالْحُقُوقِ الْمَالِيَّةِ كُلِّهَا، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ قِيَمَتِهَا.

وَأَمَّا الْجَوَابُ الْبَلَاغِيَّةُ فِي الْآيَةِ، فَكَثِيرَةٌ جِدًّا، فَلَايَةُ وَإِنْ كَانَتْ فِي بَيَانِ أَحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ دَقِيقَةٍ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَجْعَلْهَا بَعِيدَةً عَنِ الرُّفْقِ الْبَلَاغِيِّ الْعَالِي (الكرمانى، 1-107. وابن كثير، 1/721)، وَسَنَقْصِرُ عَلَى إِشَارَةِ خَاطِفَةٍ إِلَى ثَلَاثَةِ أَسَالِيبَ فَحَسْبُ؛ إِذْ تَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِيهَا يَطُولُ جِدًّا، وَلَيْسَ هُوَ الْمُقْصُودُ الْأَسَاسُ مِنَ الْبَحْثِ.

أَوَّلًا: الْبَدَاءُ بِ (يَا) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}؛ بَدَأَ الْخِطَابَ بِبَدَاءِ الْإِيمَانِ، لِثَبِيرِ أَهْتِمَامِ الْمُتَلَقِّي، وَثَبِيرِهِ بِأَهْمِيَّةِ الْمَوْضُوعِ؛ حَيْثُ يَرْتَبِطُ الْإِيمَانُ بِالتَّزَامِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ (يَا) مَوْضُوعَةٌ فِي الْأَصْلِ لِبَدَاءِ الْبَعِيدِ، وَلَكِنْ قَدْ تُسْتَعْمَلُ لَا لِإِرَادَةِ بَيَانِ دَرَجَةِ الْمُنَادِي، وَلَكِنْ لِبَيَانِ عَظَمَةِ الْمَوْضُوعِ الْمَذْكُورِ بَعْدَهُ.

ثَانِيًا: الْإِيجَازُ وَالتَّفْصِيلُ. فَإِنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ رَعْمَ طُولِهَا؛ فَإِنَّهَا مُوجَزَةٌ بِالنَّظَرِ إِلَى الْأَحْكَامِ الْمُتَكَثِّرَةِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا.

ثَالِثًا: التَّكْرَارُ لِلتَّوْكِيدِ. فَتَكَرَّرَ الْأَمْرُ بِالتَّوْثِيقِ فِي قَوْلِهِ: {فَاتَّكُبُوهُ} وَ{وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ}، يُبْرِزُ أَهْمِيَّةَ هَذَا الْإِجْرَاءِ، وَيَغْرِسُ فِي ذَهْنِ الْمُسْلِمِ ضَرُورَةَ تَوْثِيقِ الْحُقُوقِ الْمَالِيَّةِ دَائِمًا.

وَمِنْ الْمُلَاحَظَةِ أَنَّ آيَةَ الدَّيْنِ لَا تَحْمِلُ فِي طَيَّانِهَا مِنَ الْأَلْفَاطِ مَا يَعْسُرُ فَهْمُهُ أَوْ يَصْعُبُ إِدْرَاكُهُ، إِذْ جَاءَتْ مُبَيِّنَةً لِأَحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ جَلِيَّةٍ تَتَنَاوَلُ حُقُوقَ النَّاسِ وَأُمُورَ مَعَاشِهِمْ، بِمَا يَضْمَنُ السَّلَامَةَ وَالْعَدْلَ. وَقَدْ

كَانَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ وَالتَّيْسِيرِ، لِكَوْنِهَا مُوَجَّهَةً إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى تَعْقِيدٍ أَوْ تَأْوِيلٍ بَعِيدٍ، بَلْ هِيَ ظَاهِرَةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّ آيَةَ الدِّينِ مُؤَدِّجٌ فَرِيدٌ يَجْمَعُ بَيْنَ الْإِعْجَازِ الشَّرْعِيِّ وَالْبَلَاغِيِّ، حَيْثُ وَضَعَتْ أُسُوسًا لِتَنْظِيمِ الْمَعَامَلَاتِ الْمَالِيَّةِ، وَأُظْهِرَتْ بَرَاعَةُ التَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ فِي تَحْقِيقِ الْعَدْلِ وَالشُّمُولِيَّةِ. كَمَا أَنَّهَا تَحْمِلُ دُرُوسًا أَخْلَاقِيَّةً وَتَرْبَوِيَّةً تُعَزِّزُ مِنْ مَكَانَةِ الْأَمَانَةِ وَالثِّقَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ. لَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِتَكُونَ شَاهِدَةً عَلَى عَظَمَةِ الْإِسْلَامِ وَحِرْصِهِ عَلَى بِنَاءِ مُجْتَمَعٍ قَوِيٍّ يَقُومُ عَلَى أُسُسٍ وَاضِحَةٍ، تَسُودُ فِيهِ الْقِيَمُ النَّبِيلَةُ وَالْمَبَادِئُ الْعَادِلَةُ.

3. الْمَبْحَثُ الثَّانِي: أَطُولُ الْكَلِمَاتِ.

إِنَّ مِنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ فِيهِ أَلْفَاظٌ طَوِيلَةٌ الْخُرُوفِ، مُتَعَدِّدَةٌ الْمَقَاطِعِ، مِمَّا قَدْ يَبْدُو -بِحُكْمِ الطُّولِ الظَّاهِرِ- مُسْتَنْقَلًا عَلَى الْأَلْسِنَةِ وَمُسْتَهْجَنًا فِي النُّطْقِ. وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ يَبْلَاغَتُهُ الْمُعْجَزَةُ وَنَظْمُهُ الْعَجِيبُ صَاغَ تِلْكَ الْأَلْفَاظَ فِي قَالِبٍ سَهْلٍ، فَعَدَّتْ -رُغْمَ طُولِهَا- مِنْ أَغْذَابِ الْكَلِمَاتِ وَاللُّطْفِهَا جِرْسًا وَأَخْفَهَا وَقَعًا عَلَى الْأَسْمَاعِ. وَهَذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِفَضْلِ مَا هَيَّأَهُ اللَّهُ لَهَا مِنْ أَسْبَابِ الْبَلَاغَةِ، كَالتَّكَرُّارِ الْعَجِيبِ لِلْخُرُوفِ، وَالتَّنَوُّعِ الْبَدِيعِ فِي الْحَرَكَاتِ، وَمُؤَاوَمَةِ الْخُرُوفِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَنَاعَمُ وَتَتَلَاءَمُ عَلَى وَجْهِ يَأْسِرِ الْقُلُوبَ وَالْأَسْمَاعَ.

خُذْ مَثَلًا قَوْلَهُ تَعَالَى: {وَيَسْتَخْلِفْكُمْ} [الْأَعْرَافُ: 129]، فَهِيَ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ (مجموعة من الباحثين، 429-388/4). تَتَأَلَّفُ مِنْ تِسْعَةِ أَحْرُفٍ (هي كلمة واحدة بالنظر إلى ما يعده علماء علوم القرآن الكريم، وإلا فاللفظة تشتمل على كلمات عديدة كما لا يخفى)، وَمَعَ ذَلِكَ تَتَسِمُ بِخِفَّةٍ عَجِيبَةٍ فِي النُّطْقِ وَخِلَافَةٍ فِي السَّمْعِ. هَذِهِ الْخِلَافَةُ جَاءَتْ مِنْ تَنَوُّعِ مَخَارِجِ الْخُرُوفِ وَحَرَكَاتِهَا؛ إِذْ إِنَّ الْكَلِمَةَ تُنْطَقُ وَكَأَنَّهَا أَرْبَعُ كَلِمَاتٍ مُتَرَابِطَةٍ بِمَقَاطِعِهَا الْمُتَنَاعِمَةِ، مِمَّا أَكْسَبَهَا سَلَاسَةً وَإِقَاعًا بَدِيعًا.

وَمِثَالُ آخَرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ} [البقرة: 137]، وَهِيَ كَلِمَةٌ مِنْ تِسْعَةِ أَحْرُفٍ أَيْضًا، وَقَدْ تَوَزَّعَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ مَقَاطِعِ صَوْتِيَّةٍ. وَكَانَ سِرُّ جَمَالِهَا يَكْمُنُ فِي تَكَرُّارِ الْبَاءِ وَالْكَافِ، وَفِي تَوَسُّطِ

الْمَدِّ بَيْنَ الْكَافَيْنِ، بِمَا جَعَلَ هَذَا الْمَدَّ وَاسِطَةً الْعِقْدِ وَجَوْهَرَ الْفَصَاحَةِ فِيهَا، إِذْ مَنَحَ الْكَلِمَةَ انْسِيَابِيَّةً عَجِيبَةً وَشَدَّ انْتِبَاهَ السَّامِعِ بِجَمَالِ وَقَعِهَا.

وَالْمُتَأَمِّلُ فِي هَذِهِ الْأَلْفَافِ يُدْرِكُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَأْتِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الطَّوِيلَةِ إِلَّا فِي الْأَلْفَافِ الْمُرَكَّبَةِ الَّتِي تَعُودُ أَصُولُهَا إِلَى جُذُورٍ ثَلَاثِيَّةٍ أَوْ رُبَاعِيَّةٍ. أَمَّا الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَكُونُ حُمَاسِيَّةً الْأَصُولِ، فَلَمْ يَرِدْ مِنْهَا شَيْءٌ فِي الْقُرْآنِ، لِأَنَّهَا بِطَبِيعَتِهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الْعُدُوبَةِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْأَعْجَمِيَّةِ الَّتِي تَخَلَّلَتْهَا الْحُرُوفُ الْمَمْدُودَةُ، كِابِرَاهِيمَ، وَإِسْمَاعِيلَ، وَطَالُوتَ، وَجَالُوتَ. وَحَتَّى هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لَمْ تَرِدْ إِلَّا مُزَيَّنَةً بِالْمَدِّ، الَّذِي جَعَلَ الْكَلِمَةَ مِنْهَا تَبْدُو وَكَأَنَّهَا كَلِمَتَانِ تَتَأَلَّفَانِ بِانْسِجَامٍ (ذكر الرافي في إعجاز القرآن ص 158 أنها من عشرة أحرف، وهو سبق قلم منه رحمه الله).

هَكَذَا أَظْهَرَ الْقُرْآنُ عَظَمَتَهُ وَبَلَاعَتَهُ فِي أَدَقِّ تَفَاصِيلِهِ، فَجَعَلَ مِنَ الْكَلِمَاتِ الطَّوِيلَةِ تُبْهِجُ الْأُذُنَ وَتُثْرِي الْمَعْنَى، فَسُبْحَانَ مَنْ أَوْحَى بِهَذَا النِّظْمِ الَّذِي لَا يُضَاهَى.

وَأَطُولُ كَلِمَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَلِمَةُ {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} الْوَاردَةُ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ (الآية: 22) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}، فَقَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى أَحَدَ عَشَرَ حَرْفًا (إسماعيل حقي، 1-27 و 4/454). الهرري، 1/99).

وهذه الكلمة على الرغم من طولها الظاهر؛ فقد أبدع القرآن الكريم في اختيار تركيبها وسياقها ليَجْعَلَهَا خَفِيفَةً عَلَى اللِّسَانِ، سَرِيعَةً فِي التَّأَثُّرِ، عَمِيقَةً فِي الْمَعْنَى، وَبَيَّانُ ذَلِكَ:

أَوَّلًا: الانْسِجَامُ الصَّوْتِيُّ وَالتَّوَارُنُ:

رُغْمَ أَنَّ كَلِمَةَ {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} تَتَكَوَّنُ مِنْ أَحَدَ عَشَرَ حَرْفًا، إِلَّا أَنَّهَا تَنْسَابُ بِسَهَاوَةٍ عِنْدَ النُّطْقِ. سِرُّ ذَلِكَ يَكْمُنُ فِي الانْسِجَامِ الصَّوْتِيِّ بَيْنَ الْحُرُوفِ. حَيْثُ نَجِدُ أَنَّ تَتَابُعَ الْحُرُوفِ السَّاكِنَةِ وَالْمُتَحَرِّكِهَ يَتَنَاعَمُ بِشَكْلِ يُيسِّرُ نُطْقَهَا.

ثَانِيًا: السَّهُولَةُ النُّطْقِيَّةُ:

إِنَّ مِنْ أَرْوَاعِ مُظَاهِرِ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، قُدْرَتُهُ عَلَى جَعْلِ الْكَلِمَاتِ الطَّوِيلَةِ خَفِيفَةً عَلَى اللِّسَانِ. فَنُلاحِظُ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ تَتَوَرَّعُ عَلَى الْمَقَاطِعِ الصَّوْتِيَّةِ بِطَرِيقَةٍ تَجْعَلُ كُلَّ مَقْطَعٍ مِنْهَا يَرْتَبِطُ بِسَلَاسَةٍ مَعَ الَّذِي قَبْلَهُ، مِمَّا يُخَفِّفُ مِنْ ثَقَلِ النُّطْقِ الَّذِي قَدْ يَشْعُرُ بِهِ الْقَارِئُ أَوْ السَّامِعُ. وَمِنْ الْمُلَاحَظَةِ أَنَّ الْكَلِمَةَ تَبْدَأُ بِحَرْفِ الْفَاءِ؛ وَهُوَ حَرْفٌ خَفِيفٌ فِي النُّطْقِ لِحُرُوجِهِ مِنَ الشَّقَةِ، وَتَنْتَهِي بِحَرْفِ الْهَاءِ وَهُوَ مِنْ أَوَاخِرِ الْحُرُوفِ خُرُجًا؛ مِمَّا يُشْعُرُ بِالِانْتِهَاءِ.

ثَالِثًا: الْقُوَّةُ الْبَلَاغِيَّةُ فِي الْاِخْتِصَارِ وَالِإِيجَازِ:

رُغْمَ أَنَّ الْكَلِمَةَ طَوِيلَةٌ مِنْ حَيْثُ عَدَدُ الْحُرُوفِ، إِلَّا أَنَّ الْبَلَاغَةَ الْقُرْآنيَّةَ تَحَلَّتْ فِي قُدْرَتِهَا عَلَى اخْتِصَارِ مَعَانٍ مُتَكَاثِرَةٍ فِي هَذَا التَّرَكِيبِ اللَّغَوِيِّ. فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ تَحْمِلُ بَيْنَ طَيَّابِهَا رَحْمَةَ اللَّهِ وَسَعَةَ نِعْمَتِهِ، وَتُظْهِرُ عَظَمَةَ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى تَسْخِيرِ الْمَاءِ لِلْعِبَادِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى تَخْزِينِهِ أَوْ التَّحْكُمِ فِيهِ. وَهَذِهِ الصُّورَةُ تَأْتِي الْكَلِمَةَ مُحَمَّلَةً بِالْمَعْنَى الْكَامِلِ دُونَ أَنْ يَتَطَلَّبَ الْأَمْرُ مَزِيدًا مِنَ التَّفْصِيلِ. هَذِهِ هِيَ الْبَلَاغَةُ فِي أَبْهَى صُورِهَا: الْإِيجَازُ الَّذِي يَحْمِلُ دِلَالَةً شَامِلَةً عَمِيقَةً.

وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ يَظْهَرُ جَلِيًّا أَنَّ كَلِمَةَ {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} تُثَمِّلُ مُؤَدَّجًا فَرِيدًا فِي الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنيَّةِ، فَهِيَ تَجْمَعُ بَيْنَ النُّطْقِ السَّلِسِ وَالْمَعْنَى الْعَمِيقِ.

4. الْمَبْنَحُ الثَّالِثُ: أَطْوَلُ الْقِصَصِ.

تُعَدُّ قِصَّةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَطْوَلَ الْقِصَصِ الْقُرْآنيَّةِ (محمد رشيد رضا، 207/12. وأحمد المراغي، 111/12. وأبو بكر الجزائري، 592/2. والهرري، 304/13). وما ذكره الشعراوي في تفسيره 4269/7 من أن قصة موسى مع فرعون هي أطول القصص القرآنية، محمول على كثرة تكرارها في القرآن، أو أطولها إذا جُمع بعضها إلى بعض، أما ما كان على نسق متواصل؛ فأطول قصة هي قصة يوسف عليه السلام).

، وَقَدْ خَصَّهَا اللَّهُ تَعَالَى بِسُورَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ تَحْمِلُ اسْمَهُ، فَجَاءَتْ بِدِيعَةِ السَّرْدِ، مُحْكَمَةَ النَّظْمِ، جَامِعَةً بَيْنَ عِبَرِ الْمَاضِيَيْنِ وَدُرُوسِ الْمُؤَخَّرِينَ، زَاخِرَةً بِالْحِكْمِ وَالْمَعَانِي، تُبْدِي عَظَمَةَ تَدْبِيرِ اللَّهِ وَلُطْفَهُ بِعِبَادِهِ، وَتُثَبِّتُ أَنَّ الصَّبْرَ وَالْإِيمَانَ سَبِيلَانِ لِلنَّجَاةِ وَالْفَلَاحِ.

وَقِصَّةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِثَالٌ حَيٌّ عَلَى الْبَلَاغَةِ فِي الطُّولِ دُونَ إِمْلَالٍ أَوْ تَشْتِيتٍ، فَهِيَ رُغْمَ امْتِدَادِهَا وَتَفْصِيلِ أَحْدَاثِهَا؛ جَاءَتْ مُتَمَاسِكَةً فِي بِنَائِهَا، مُحْكَمَةً فِي سَبْكِهَا، مُتَرَابِطَةً فِي تَسْلُسُلِهَا. إِنَّ طُولَهَا لَيْسَ عَبَثًا عَلَى الْقَارِئِ، بَلْ هُوَ غُنْصُرٌ يَزِيدُهَا رَوْعَةً وَجَاذِبِيَّةً، حَيْثُ تَأْخُذُ بِيَدِهِ فِي رِحْلَةٍ عَبْرَ الزَّمَنِ وَالْأَحْدَاثِ، كَأَنَّمَا يَشْهَدُ الْوَقَائِعَ رَأْيِي الْعَيْنِ.

وَمِنْ أَبْزَرِ جَوَانِبِ بَلَاغَةِ الطُّولِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهَا جَاءَتْ فِي نَسَقٍ مُتَنَاعِمٍ، فَتَبَدُّ بِمَشْهَدِ الرُّؤْيَا الْبَاعِثِ لِلْأَمَلِ، وَيَنْتَهِي بِمَشْهَدِ التَّحْقِيقِ الَّذِي يُجَسِّدُ لُطْفَ اللَّهِ وَعَدْلَهُ. وَبَيْنَ الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ؛ تَشَابَهُ الْأَحْدَاثِ بِطَرِيقَةٍ تُثِيرُ الْفُضُولَ وَتُسْتَدْعِي التَّأَمُّلَ، حَيْثُ كُلُّ حَدَثٍ مُبْهَدٌ لِلَّذِي يَلِيهِ، فَلَا تَرَى فِيهَا انْقِطَاعًا وَلَا فَجْوةً فِي السِّيَاقِ.

كَمَا أَنَّ طُولَ الْقِصَّةِ كَانَ ضَرُورَةً بَلَاغِيَّةً؛ لِأَنَّ أَحْدَاثَهَا لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى جَانِبٍ وَاحِدٍ، بَلْ تَنَاوَلَتْ أُنْعَادًا مُتَعَدِّدَةً: الْأُسْرِيَّةَ، وَالْاجْتِمَاعِيَّةَ، وَالدِّينِيَّةَ، وَالسِّيَاسِيَّةَ ... وَمَعَ ذَلِكَ ظَلَّتْ مُتَكَامِلَةً فِي طَرَحِهَا، فَلَمْ يَتَكَثَّرْ فِيهَا مَشْهَدٌ عَبَثًا، وَلَمْ يُذَكَّرْ فِيهَا تَفْصِيلٌ إِلَّا لَخِدْمَةِ الْمَعْنَى الْعَامَّةِ. إِنَّكَ تُجِدُ كُلَّ جُزْءٍ مِنْهَا كَالْخَلْقَةِ الَّتِي تُشَدُّ مَا قَبْلَهَا وَتُفْهِدُ لِمَا بَعْدَهَا، فَتَنْسَابُ السُّورَةُ أَنْسَابًا عَجِيبًا كَالْتَّهَرِّجِ الْجَارِي الَّذِي يَنْسَقِي الرُّوحَ وَالْعَقْلَ مَعًا.

وَمِنْ بَلَاغَةِ الطُّولِ فِي الْقِصَّةِ أَيْضًا أَنَّهَا تُبَيِّنُ لِلْقَارِئِ فُرْصَةً لِلتَّأَمُّلِ التَّدْرِيجِيِّ، فَيَعِيشُ مَعَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَانَاتِهِ فِي الْجُبِّ، وَمُحَنَّتِهِ فِي قَصْرِ الْعَزِيزِ، وَسِجْنَهُ، ثُمَّ عُلُوَّ شَأْنِهِ وَسَيَادَتَهُ. وَهَكَذَا، يَشْعُرُ الْقَارِئُ أَنَّ طُولَ الْقِصَّةِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَسَاحَةً لِيَبْنِيَنَّ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، وَعَظَمَتِهِ فِي تَدْبِيرِهِ.

بِهَذَا الْوُجْهِ؛ يَتَّضِحُ أَنَّ طُولَ قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَ طَوْلًا يُثْقِلُ النَّفْسَ وَلَا يُشْتِتُ الْفِكْرَ، بَلْ يَزِيدُهَا أَنْسَجَامًا وَجَمَالًا، وَيُبْرِزُ الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ فِي جَمْعِ التَّفَاصِيلِ دُونَ إِسْهَابٍ، وَالْإِطَالَةِ دُونَ مَلَلٍ، لِتَظَلَّ الْقِصَّةُ عَلَامَةً فَارِقَةً فِي بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَعَجَائِبِهِ.

5. الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ: أَطْوَلُ الْأَسَالِيبِ.

زكرياء توناني

يَتَمَيَّزُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِأَسَالِيهِ الْبَيَانِيَّةِ الْبَاهِرَةِ، الَّتِي تَسْتَهْدِفُ إِصْبَالَ الْمَعَانِي بِطَرِيقَةٍ تَسْتَقِرُّ فِي النُّفُوسِ وَتُؤَثِّرُ فِي الْقُلُوبِ. وَتَتَوَّعُ هَذِهِ الْأَسَالِيْبُ بَيْنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، وَالتَّقْرِيرِ وَالِاسْتِفْهَامِ، وَغَيْرِهَا بِمَا يَجْعَلُ كُلَّ أُسْلُوبٍ مُلَائِمًا لِسِيَاقِهِ، مُتَزَجًا بِالسِّيَاقِ وَاللِّحَاقِ، حَتَّى يَكُونَ لِلْمَعْنَى أَشَدُّ تَأْثِيرًا وَأَبْلَغُ وَفُوعًا.

وَمِنْ أَبْزَرَ هَذِهِ الْأَسَالِيْبِ فِي الْقُرْآنِ أُسْلُوبُ الْقَسَمِ، الَّذِي جَاءَ فِيهِ بِأَنْوَاعٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَعَلَى وُجُوهِ بَلِيغَةٍ مُتَفَرِّدَةٍ. فَإِنَّ الْقَسَمَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ يُسْتَعْمَلُ لِتَعْظِيمِ شَيْءٍ أَوْ تَأْكِيدِهِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ لِلتَّنْبِيْهِ عَلَى أُمُورٍ عَظِيمَةٍ وَمَقَاصِدَ كُبْرَى، لِتَكُونَ أَشَدَّ حُضُورًا فِي الْأَذْهَانِ، وَأَقْوَى تَأْثِيرًا فِي النُّفُوسِ.

وَمِنْ أَبْيَنِ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ، أُسْلُوبُ الْقَسَمِ فِي سُورَةِ الشَّمْسِ، الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِطُولِهِ النَّسْبِيِّ وَتَعَدُّدِ عَنَاصِرِهِ، إِذْ جَاءَ فِيهِ تَتَابُعٌ دَقِيقٌ لِلْجُمْلِ قَسَمِيَّةٌ تَسْتَعْرِضُ عَظِيمَ صُنْعِ اللَّهِ وَتُؤَكِّدُ حَقِيقَةَ الْفَلَاحِ لِمَنْ رَزَقَى نَفْسَهُ وَالْحَبِيبَةَ لِمَنْ أَحَبَّهَا.

إِنَّ الْقَسَمَ فِي سُورَةِ الشَّمْسِ عَلَى طُولِهِ الَّذِي امْتَدَّ عَبْرَ أَحَدَ عَشَرَ قِسْمًا مُتَتَابِعًا، يُمَثِّلُ قِمَّةَ الْإِنْدَاعِ الْبَلَاغِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. فَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ امْتِدَادِ الْمُقْسَمِ بِهِ عَبْرَ هَذِهِ الْآيَاتِ؛ فَإِنَّ الطُّولَ لَمْ يُفْضَ إِلَى التَّفَكُّكِ أَوْ الْإِمْلَالِ، بَلْ جَاءَ مُتَمَاسِكًا فِي نَسَقٍ بَدِيعٍ يَشْدُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيَأْخُذُ بِتَلَايِبِ الْقَارِئِ وَالسَّامِعِ؛ لِيَصِلَ بِهِ إِلَى ذِرْوَةِ الْمُقْصُودِ؛ وَهُوَ عَظَمَةُ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ وَجَلَالَتُهُ.

إِنَّ الْأَقْسَامَ الْمُتَعَدَّدَةَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مُتَّسِقَةٌ بِشَكْلِ فَرِيدٍ؛ إِذْ تَرْتِطُهَا وَحْدَةٌ مَوْضُوعِيَّةٌ تَدُورُ حَوْلَ مَظَاهِرِ عَظَمَةِ الْخَلْقِ وَإِثْقَانِ الصَّنْعِ، فَاللَّهُ تَعَالَى أَقْسَمَ بِالشَّمْسِ وَضَحَاهَا، ثُمَّ بِالْقَمَرِ الَّذِي يَتْبَعُهَا، فَالنَّهَارِ الَّذِي يُجَلِّي الْأَرْضَ، فَاللَّيْلِ الَّذِي يَغْشَاهَا، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى السَّمَاءِ وَبَنَائِهَا، وَالْأَرْضِ وَبَسْطِهَا، وَالنَّفْسِ وَتَسْوِيَّتِهَا. هَذَا التَّدْرِجُ مِنَ الْمَظَاهِرِ الْكُؤْنِيَّةِ إِلَى النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ يَعْكِسُ وَحْدَةً مَوْضُوعِيَّةً وَتَكَامُلًا فِي عَرْضِ مَشَاهِدِ الْخَلْقِ، بِمَا يَجْعَلُ طُولَ الْقَسَمِ مُسَوِّعًا وَمُتَنَاسِقًا.

وَالْأَقْسَامُ عَلَى كَثَرَتِهَا وَتَنَوُّعِهَا تَتَّجِهُ إِلَى مُقْسَمٍ عَلَيْهِ وَاحِدٍ هُوَ {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}، وَهَذَا التَّرْكِيزُ عَلَى غَايَةٍ وَاحِدَةٍ يُبْرِزُ أَهْمِيَّةَ هَذَا الْأَمْرِ وَعَظَمَتَهُ؛ إِذْ جَعَلَهُ اللَّهُ مُحَوَّرًا تَدُورُ حَوْلَهُ كُلُّ

هذه المظاهر العظيمة. فكما أن الخلق الكوني كله مُحَكَّمٌ ومُنظَّمٌ، كذلك تَرْكِيبُ النَّفْسِ وَتَحْقِيقُ فَلَاحِهَا هُوَ غَايَةٌ يَنْبَغِي أَنْ تُنَسَّجَ مَعَ هَذَا النِّظَامِ الإِلَهِيِّ.

6. الخاتمة:

بعد أن استعرضنا في هذا البحث جوانب متعددة من بلاغة القرآن الكريم، بدءاً من أطول السور مطلقاً، وأطول السور المكيّة، وأطول الكلمات، مروراً بأطول القصص، وانتهاءً بأطول الأساليب؛ نجد أن القرآن الكريم قد أبدع في ترتيب هذه الأطوال وتوظيفها بما يتناسب مع مقاصده السامية.

وقد توصلنا إلى مجموعة من النتائج المهمة التي تؤكد على التناسق البديع في البناء البلاغي القرآني؛ حيث برهن القرآن الكريم على أن الطول لا يؤدي إلى التشبث أو الثقل، بل إنه يأتي في مواقع ملامح تمام التلاوم للغرض البلاغي. فقد جاءت أطول السور -وهي سورة البقرة- مترابطة على وجه يتكامل فيه المعنى، وتدعم فيه جزئيات السورة بعضها بعضاً. وكذا الحال في أطول الكلمات في القرآن {فَأَسْقِنَاكُمْوه}، التي برزت بلاغتها في قدرتها على اختصار معانٍ متكاثرة في تركيبة قصيرة ورشيقة.

أما فيما يتعلق بأطول القصص القرآني، فقد قدّمت لنا قصة يوسف عليه السلام نموذجاً متميزاً في طريقة ترابط الأحداث وتكاملها رغم طولها؛ لتصل في النهاية إلى غايتها في إثبات معاني الصبر والعفة والتوفيق الإلهي.

وفي الأساليب الطويلة؛ جاء أسلوب القسم في سورة الشمس، وقد كانت البلاغة واضحة في كيفية استخدام التكرار والتناغم بين المفسم به والمقسم عليه، مما يزيد من قوة التأثير البلاغي ويغني المعنى.

من خلال هذا البحث، تبين لنا أن الطول في القرآن الكريم لا يعدُّ عائقاً، بل هو وسيلة من وسائل البلاغة لإبصار المعاني بطرق متعددة الأبعاد، مع مراعاة التوازن بين المعنى والصورة البلاغية. وكلما كان الطول موجّهاً نحو غاية بلاغية واضحة؛ كان أثره أكبر في نفس المتلقي.

وقبل أن أضع قلم البحث؛ أودّ تسجيل مقترحات للباحثين، أجملها في المقترحات الثلاثة الآتية:

أُولَئِكَ: أَنَّ يَكُونُ هُنَاكَ مَزِيدٌ مِنَ الدِّرَاسَاتِ الَّتِي تَتَنَاوَلُ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ طُولِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ وَعُمُقِ مَعَانِيهَا الْبَلَاغِيَّةِ، وَكَيْفِيَّةِ تَأْثِيرِ هَذِهِ النُّصُوصِ عَلَى النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، سَوَاءً مِنْ نَاحِيَةِ السَّمْعِ أَوْ الْفَهْمِ.

ثَانِيهَا: دِرَاسَةُ تَفَاعُلَاتِ الْأُسْلُوبِ الْقُرْآنِيِّ مَعَ السِّيَاقَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْأُخْرَى، وَلَا سِيَّمَا فِي السُّورِ الَّتِي تَحْوِي أَطْوَلَ الْأَسَالِيبِ، لِفَهْمِ كَيْفِيَّةِ اسْتِخْدَامِ الطُّولِ فِي خِدْمَةِ الدَّلَالَةِ.

ثَالِثُهَا: الْعَمَلُ عَلَى تَوْثِيقِ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَحْدِيدِ كَيْفَ يَعْكِسُ طُولُ النُّصُوصِ أَوْ الْأَسَالِيبِ التَّوَازُنَ بَيْنَ الْإِيْجَازِ وَالْإِطْنَابِ، وَمَدَى تَأْثِيرِ ذَلِكَ عَلَى فَهْمِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَتَدَبُّرِهِ.

وَفِي الْخِتَامِ؛ أُؤَكِّدُ أَنَّ هَذَا الْبَحْثَ قَدْ أَلْقَى الضُّوءَ عَلَى جَانِبٍ عَمِيقٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَكْشِفُ لَنَا مَعَ كُلِّ قِرَاءَةٍ وَمَتْنٍ عَنْ أَسْرَارٍ جَدِيدَةٍ، وَيَطْلُقُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْمَصْدَرُ الْأَعْظَمُ وَالْمُرْشِدُ الْبَلِيعُ الَّذِي لَا تَنْقُضِي عَجَائِظُهُ، فَسُبْحَانَ مَنْ أَوْحَاهُ وَتَكَلَّمَ بِهِ.

7. المراجع:

1. الشَّهَابُ الْخَفَاجِي، عناية القاضي وكفاية الرَّاظِي، (152/1)، والطَّنْطَاوِي، التَّفْسِيرُ الْوَسِيطُ، (27/1).
2. أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي، الْبَيَانُ فِي عَدَّ آيِ الْقُرْآنِ، (ص140). وَابْنُ شَاذَانَ، سُوْرُ الْقُرْآنِ وَأَيَاتُهُ وَحُرُوفُهُ وَنَزُولُهُ، (ص99).
3. عَبْدُ الرَّحْمَنِ حَبَنَّةُ الْمَيْدَانِي، معارج التَّفَكُّرِ ودقائق التَّدْبِيرِ، (341/15).
4. السَّيُّوطِي، الْإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ، (191/1).
5. ابْنُ عَطِيَّة، الْمُحَرَّرُ الْوَجِيزُ، 81/1.
6. عَبْدُ اللَّهِ دِرَاز، النَّبَأُ الْعَظِيمُ، ص: 191-196.
7. طَنْطَاوِي، التَّفْسِيرُ الْوَسِيطُ، 237/5.
8. أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي الْبَيَانُ فِي عَدَّ آيِ الْقُرْآنِ، ص: 155.
9. الْكِرْمَانِي، غَرَائِبُ التَّفْسِيرِ، 107-1. وَابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، 721/1.
10. مَجْمُوعَةُ مِنَ الْبَاحِثِينَ، مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ الْبَلَاغِي، 429-388/4.
11. الرَّافِعِي، إِعْجَازُ الْقُرْآنِ وَالبَلَاغَةُ النَّبَوِيَّةُ، 158.
12. إِسْمَاعِيلُ حَقِي، رُوحُ الْبَيَانِ، 1-27 و 454/4. الْهَرِيرِي، تَفْسِيرُ حُدَاتِقِ الرُّوحِ وَالرِّيْحَانِ، 99/1.
13. مُحَمَّدٌ رَشِيدٌ رِضَا، تَفْسِيرُ الْمَنَارِ، 207/12. وَأَحْمَدُ الْمُرَاغِي، تَفْسِيرُ الْمُرَاغِي، 111/12. وَأَبُو بَكْرٍ الْجَزَائِرِي، أَيْسَرُ التَّفَاسِيرِ، 592/2. وَالْهَرِيرِي، تَفْسِيرُ حُدَاتِقِ الرُّوحِ وَالرِّيْحَانِ، 304/13.